التصوير الفني

في القرآن الكريم

لسيد قطب

في المقال الاول تحدثنا عن نوعين من أنواع التصوير الفني في القرآن الكريم : « صور فنية ، وقصص فني » . وفي هذا المقال نتحدث عن النوعين الاخيرين

٣ — حوار فني

في القرآن كثير جدًّا من الحوار ، وهو صلب كل قصصه تقريباً ، وكل مناقشاته لمخالفيه في العقيدة . ولكن الحوار الفني الذي سأضرب له الامثال هنا ، هو ما يشتمل على عنصر الخيال ، ويجتاز بهذا الخيال ، إلى دارة الفنون الحرة ، وميدان الآداب الطليق (١)

١ — « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمُصْرِخِكُمْ ، وما أنتم بمصرخيَّ إني كفرتُ بما اشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » . وفي هذا الحوار البارع ، يبدو لك المنظر مؤلفاً من ثلاث فرق :

اولاً : الضعفاء الذين كانوا تبعاً للاقوياء . وهم ما يزالون في ضعفهم ، وقصر عقولهم وإحساسهم ، يلجئون إلى الذين استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف ، أو يعتبون عليهم إغواءهم متمشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة

ثانياً : الذين استكبروا ، وقد ذلت كبرياؤهم ، وواجهوا عاقبتهم وهم ضيقو الصدور بهؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكفيهم ما يرونهم فيه من ذلة وعذاب ، فيسألونهم الخلاص ، وهم لا يملكون لأنفسهم خلاصاً أو يذكرونهم بجريمتهم معهم حيث لا تنفع الذكرى ، فما يزيدون على أن يقولوا لهم : « لو هدانا الله لهديناكم »

ثالثاً : الشيطان . بكل ما في طباعه من مراوغة ومغالطة واستهتار وتبجح و(شيطنة) يعترف لأتباعه

---

(١) يصلح هذا الموضوع لبحث مستقل ، يتناول الحوار في القرآن وعلاقته بالعقلية العربية العامة ، ووسائلها في البرهنة

— الآن فقط — أن الله وعدهم وعد الحق ، وأنهُ هو وعدهم فأخلفهم ثم يمضهم ويؤلمهم وهو ينفض يديه من تبعاتهم : « وماكان لي عليكم من سلطان ، إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم »لا بل يزيد في تبجحه فيقول « إني كفرت بما اشركتمون من قبل » الله . الله . يأيها الشيطان !

في الحق إن هذا إبداع في تصوير الموقف الفريد ، الذي يتنكر فيه المتبوع للتابع ، ويتخلى الولي عن الاولياء ، حيث لا يجدي احداً منهم أن يتخلى أو يستمسك ، ولكنها طبيعة كل فريق تسيره دون تفكير . وفي الحق إن الشيطان هنا منطقي مع نفسه ، ومع الصورة التي يرسمها القرآن له ، وإلا فما يكون شيطاناً بغير هذا التلاعب والتبجح والانكار . والموقف بما فيه من هذا الحوار التصويري ، موقف فريد من الوجهة الفنية البحتة ، وله أثره العميق في النفوس ، ولولا أن هذا البحث فني خالص ، لتوسعت في بيان قيمته من وجهة الدعاية الدينية ، ولكن حسبنا الاشارة

٢ — « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعاً ، فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : انا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد » . وفي هذه الصورة ملامح من تلك ، وهي تكرار لبعضها ، مع تغيير طفيف حين تبدو الملالة في قول المستكبرين : « انا كل فيها » فهي قولة الضّجر وحرج الصدور ، الذي لا يطيق كلاماً ولا جواباً

٣ — ومن هذا النحو : « اذ تبرأ الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتّبعوا لو ان لنا كرّة ، فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ! »

وفيها ما يشير الى الغيظ وحب الانتقام يجيش في صدور الضعفاء ، فيتمنون لو يجازون اولياءهم صاعاً بصاع . ولكن هيهات !

٤ وفي موقف نوح من ابنه عند الطوفان : « وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنَهُ وكان في معزل : يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الاّ من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

في اللحظة الرهيبة تتنبه عاطفة الأبوة ، ومع اعتقاد نوح كنبيّ ان ابنه مغرق لأنه لم يؤمن فقد طغت عليه عاطفة الأبوة ، وراح في لهفة وضراعة يدعو ابنه . ولكن البنوة العاقة، لا تحفل هذه العاطفة ، والفتوة القوية ، لا ترى الخلاص الاّ في عملها وفتوتها : « سآوي الى جبل »

وفي لحظة اخرى تتغير صفحة الموقف ، في تعبير خاطف ، يصور الموجة العاتية ، تبتلع كل شيء في لحظة « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

وللحوار بقية بين الله ونوح ، ولكن الجزء الذي اثبتناه ، لم يدع مجالاً للنظر فيما وراءه بما تركه في النفس من روعة خاطفة وخيبة ساهمة

٥ — ومن الحوار الممتع المصور للحالة النفسية، ما يدور بين اهل الجنة واهل النار:
« ونادى اصحابُ الجنة اصحابَ النار : ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ قالوا : نعم. واذّن مؤذّن بينهم ان لعنة الله على الظالمين »
« ونادى اصحابُ النار أصحابَ الجنة : ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا : انّ الله حرّمهما على الكافرين »

فهذا الحوار المختصر في ذينك الشأنين بليغ في اختصاره، مصور لحالتي الفريقين اتم تصوير وفي مبدئه تهكم خفيّ من المؤمنين، بأولئك الذين كانوا يكذبون بما وعدهم الله، حتى اذا تم « اذّن مؤذّن بينهم ». وبين النداءين تصوير للأعراف، وما يقع عندها من احداث يضم الى القسم الأول من اقسام التصوير الفنيّ، ويصلح مادة لملاحم خصبة[1]، ومناظر سينمائية

٤ — تعبيرات فنية

في القرآن غير الأنواع الثلاثة التي مرّ ذكرها، تعبيرات فنية مختصرة، ترتفع الى الذروة في دقة التعبير وجماله، وافصاحه عما يتصدى له من مناظر طبيعية، او خطرات نفسية، اوطبائع خلقية. وفيما يلي نماذج منها

١ — « والصُّبحِ اذا تنفّس »... فمن ذا الذي يقرأ هذا التعبير، ثم لا تنبعث في نفسه خيالات شتى، تصور له كل حيّ في هذه الدنيا، ينفض عن نفسه رداء النوم، عند انبلاج الصباح، وتدب فيه الحياة والحركة، وتشيع فيه النشوة واليقظة؟

وهي بعد جملة واحدة، بل لفظة واحدة، تخلق هذا المثال النادر من الاشعاع، وتمد الخيال بذخيرة، تنشط لها النفس الحية، وتستشعر التفتح والاسترواح

٢ - « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »... تقرؤها فتتصور التهالك على الحياة في احط صورها، وأقل مراتبها، بلا شرط، ولا تمييز بين حياة وحياة. فوراء هذا التنكير والتجهيل ماوراءه من تحقير وتصغير، يهبط بالحياة التي يحرص عليها هؤلاء الناس المقصودون، الى مرتبة حياة الديدان والحشرات والهوام، دون أن يساق لهذا المعنى لفظ ناب، ولا تعبير مستكره!

٣ — «ويحلفون بالله إنهم لمنكم، وماهم منكم، ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغارات او مُدّخلا لولوا اليه وهم يجمحون». فأي تعبير عن الجبن، وتأصل الخوف، وسقوط الهمة، واعتياد التخلف، أبين من هذا التعبير المختصر المصور، الذي لا يواجهك بالوصف، بل يترك لك استنباطه، بعد متعة للخيال في التصور اللطيف؟

(١) كتب الشاعر المبدع المرحوم الاستاذ محمد عبد المعطي الهمشري ملحمة بعنوان « شاطىء الاعراف »

٤ — «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض : هل يراكم من احد ؟ ثم انصرفوا» ! يا للسخرية من قوم لا يحتملون تبعة رأيهم ، ولا يحبون أن يقوم الدليل عليهم ، فيهربون من مواجهته ، وهم يتخافتون بينهم ، ليتأكدوا أن أحداً لم يرهم وهم يهربون

ويا للخيال الممتع يبصر بهم ، وهم يتسللون ، بعد أن نظر بعضهم الى بعض ، وقد أمنوا الرقيب

٥ — « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سُكِّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ! . وهذه صورة للمكابرين الصغار ، الذين لا تنبع مكابرتهم من اعتداد بالنفس والرأي ، بل تنبع من الجهل والاستغلاق والعناد المطموس فلا يبالون وضوح الدليل ، ولا نصاعة الحجة ، ولا يخافون سقوطهم بسبب هذا العناد المفضوح

٦ — « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ . ضعف الطالب والمطلوب » . أرأيت إلى تصوير الضعف المزري ، وإلى التدرج في تصويره بما يفضي الى السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ؟

« لن يخلقوا ذباباً » هذه درجة . « ولو اجتمعوا له » وهذه اخرى ، « وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ » وهذه انكى وأشد ، وليس وراء ذلك من ضعف حقير

ولكن ! اهذه مبالغة ؟ او هل البلاغة فيها هي الغلو ، كما يفهم الكثيرون ان ذلك مدار الاستحسان فيما يقرءون !

كلاَّ ، فهذه حقيقة واقعة بسيطة ، فهؤلاء الآلهة الذين عبدوا من دون الله — وأرقاهم ما كان انساناً — « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صغير حقير ، ولكن الاعجاز في خلقه هو الاعجاز في خلق « الحياة » وهي اكبر شيء واعظم شيء في الوجود . وما تزال الحياة في اول صورها مستهولة مستعظمة ، بجانب الموت الجامد ، والفناء المترامي

ولكن البراعة هنا في عرض هذه الحقيقة ، بصورة تكشف العجز عن بلوغ مسألة هينة صغيرة في ظاهرها

ولعل في هذا ابداء سريعاً لرأي في المبالغة وعلاقتها بالبلاغة وان كان الموضوع يتسع لبحث كبير

٧ — «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الاَّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلاَّ يعلمها ، ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ الاَّ في كتاب مبين »

في هذه الكلمات القليلة تعبير قوي رهيب عن شمول علم الاله ، مختار له افضل الألفاظ المعبرة ، فضلاً على التركيب كلهُ ، فليس عبثاً أن يقال : « وما تسقطُ من ورقةٍ الاَّ يعلمها » وليس لغواً ان يقال : « ولا حبَّةٍ في ظلمات الارض » وان الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها ومجاهلها ، ليتتبع هذه الاوراق الساقطة ، وتلك الحبات المخبوءة المشمولة في مخابئها بعلم الاله

٨ — « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح » . شريط سريع العرض جداً للحياة ، يفي بالغرض المقصود من تجسيم قصرها وسرعتها ، وهو غرض ديني ليس من شأننا ان نبحثه هنا ، ولكنا نبحث الصورة وحدها في جمل ثلاث قصيرة ، تتضمن ثلاث حالات سريعة متداخلة ، ينتهي عرض « شريط » الحياة!

ماء نازل من السماء ، اختلاط هذا الماء بالنبات، النبات هشيم تذروه الرياح!

وبين هذه المراحل الثلاث الخاطفة ، مراحل اخرى طويلة ، ولكنها في الواقع ثانوية في الصورة وفي حياة النبات، ولهذا يعتبر ذلك التصوير صادقاً مع اغفاله المراحل الطويلة الثانوية التي لا حاجة اليها في الغرض الحاضر ، وإثباته المراحل القصيرة الاساسية

وتلك هي المهارة في التعبير ، مع الصدق في المحو والاثبات

كلمة تحليلية

لم يكن قصدي مما قدمت الآن ضرب الأمثلة ، ولفت النظر ، فلم أكن أنوي الاستقصاء ، وما يزال وراء ما ذكرت كثير مما لم أذكر ، والموضوع خصب وصالح للدراسات المستفيضة ، والمنتهون في دراسة الآداب ، بالجامعة والازهر ودار العلوم (بعد اصلاحها) يستطيعون ان يضمنوا هذا البحث ، رسالة قيمة للنقاش والدراسة

ولكن من الحق ان اقرر ان ما لم اذكره صورة مما ذكرته ، وكلاهما يلتقي عند لون واحد من ألوان الأدب الفني . وهذه الانواع الاربعة التي مثلت لها ، تلتقي كذلك عند هذا الاصل ولهذا لا يعد من الابتسار والتعجل ، الكلام على التصوير الفني في القرآن ، هنا من وجهة النقد الادبي .[يميل الادب العربي كله الى «الكلاسيك» حينما يميل الى الصور الذهنية ، والتقاليد التعبيرية ذات القوالب المصبوبة المحدودة ، التي تستعار من حالة ، الى كل حالة تشابهها . ولذلك مال النقاد والعرب ، الى تحديد صور العواطف والانفعالات ، وتحديد صور التعبير عنها كذلك

ولذلك غلا بعض ادبائهم ، فانكر نفسهُ وزمانه في سبيل الجري وراء الصور الذهنية والصور التعبيريَّة ، في مخلفات الاجيال السابقة واعتبروها نوعاً من الطقوس لا ينزع عنها !

ولكن الأدب العربي لم يعدم التنويع في اساليبه واتجاهه الى حدٍّ ما

فقد دخلت فيه « الرمزية » عن طريق « الصوفية » التي ترمز بالظاهر للباطن ، وترى خلف كل محسوس ظاهر ، معنويًّا مغيباً وراء الحجب ، تتملاه البصائر « بالاشراق » وتقصر دونه الابصار . وهذا اساس لا بأس به للرمزية في الأدب

ولكن حدث أن « الصوفية » ظلت طريقة دينية اكثر منها طريقة أدبية . وظلت بمعزل عن الادب العام ، فلم تؤثر رمزيتها فيه الا بمقدار ، ولم تستطع تحويلهُ عن مجراه الاصلي ، وعن

وجهته الكلاسيكية . ويعتبر ابن الفارض أبرز مثل لرمزية الأدب العربي ، وهي كما يراها الباحث رمزية خفيفة ، مناسبة للوسط العربي

وقد دخلت « الرومانتيكية » كذلك دخولاً خفيفاً جداً في الأدب العربي في العهد العباسي وفي الاندلس ، وازدادت الى حدّ ما في أيامنا هذه وإن كانت آخذة في الانحسار ، تبعاً لانتشار المذهب « الواقعي »

دخلت الصور الموشاة المظللة في الشعر ، ورسمت صور الأبطال والمواقف والمناظر ، ذلك الرسم الهين تحت اشعّة ساجية ، وأحاطت الهالات المرسومة عن قصد بالعواطف والمرائي، وتبع ذلك ظهور التهارض والاصطناع وهما من عيوب الرومانتيكية ، حين تغلو في طريقتها

أما « الواقعية » فقد استعاض عنها الادب العربي قديماً ببساطته وحسيته ، ولو انحرف قليلاً لصار اليها ، وإن الباحث في بعض الانتاج الادبي في الجاهلية ، وفي الشعر الماجن ايام العهد العباسي ، ليجد في كليهما ملامح من « الريالزم » الحديث

الى اي هذه الألوان الاربعة يجنح التصوير الفنّي في القرآن ؟ [يجد الباحث مشابه كثيرة فيه من « الرومانتيكية » وان كان هو سابقاً لظهور هذا المذهب في اوربا وفي الشرق طبعاً ولكنها «الرومانتيكية» الخفيفة ، البعيدة عن التكلف والاصطناع

فتلك الصور الفنية التي رسمها ليست « كلاسيكية » ذات قوالب وحدود . وليست « رمزية » ولا تميل الى الرمزية ، فليس وراءها ما ترمز اليه ، وإنما هي مقصودة لذاتها . وليست «واقعية» مجردة من الخيال والتوشية والظلال . ولكنها أشبه ماتكون بالرومانتيكية

وليس في ذلك كله من عجيب . فالقرآن يمثل العقلية العربية والاتجاه العربي في التعبير ، إذ كان خطاباً للعرب أولاً ، وسجلاً لارقى طبقة معجزة من بلاغتهم

والعقلية العربية لا تميل الى الرمز ، ولا تجد حاجة اليه وهي تكره التوشية والظلال والاغراق في البعد عن المحسوس الملموس ، والرومانتيكية لا يهمها المحسوس بمقدار ما تهمها الصورة الخيالية

فلا غرابة أن تنأى العربية عن الرومانتيكية الموغلة ، ويكتفي القرآن بالصور الأولى منها في تصويره الفنّي

اما لماذا لا تميل العقلية العربية الى الرموز والخيالات ، ففي طبيعة بلادها تأويل ذلك . فليس في هذه البلاد محجوب ، ولا مسهول مجهول ، فلا داعي اذن لاغراق الخيال ، ولا ضرورة حينئذ للرمز ، وكل شيء مكشوف معروف . ثم إن الصراحة التي جبل عليها العربي نتيجة عدم خضوعه لنظم سياسيّة او اجتماعية او اقتصادية قاهرة تميل به عن الرمز الى التصريح

تلك عجالة في هذا البحث البكر الخصيب ، ولعلها تكون مقدمة لبحث شامل كبير ان شاء الله